النثر في العصر الإسلامي والأموي

تمهيد:

كان العربي في الجاهلية صاحب نزعة وجدانية يغلب الميل العاطفي على تفكيره وتفسيره للظواهر ويطغى على رؤاه الاندفاع العاطفي وبما أن الشعر مصدره الشعور ومنطقه الأحاسيس أكثر من العقل غلب على لسانهم الشعر وناله من قداسة يقينهم التبجيل وإكبار الشعراء رغم نشاط النثر حينها على ما رأيناه من حضور الخطابة بمختلف موضوعاتها أو الأمثال والحكم أو حتى استهلاك فن الوصايا ورغم حضور هذه المظاهر النثرية على لسان الجاهلي تعاملا وتوظيفا إلا أن وقوفه أمام الشعر كان له هيبته ومقامه.

وببداية انتشار الإسلام وبدء التغيير الحضاري في التفكير والتقبل اخذ الشعر في الانحصار وبدأت مكانته بين الناس في تناقص وحلت محله تلك الفنون التي لطالما تقزمت في مواجهته سابقا فأعطى الخطاب الديني في مظهريه (القرآني والسني) مقاييس مختلفة لصورة التعاطي اللساني الممارس في عصر صدر الإسلام (1هـ _40هـ) وكان في بقية العصر الإسلامي (العصر الأموي 41هـ_132هـ) استخراج في الكلام الفني بين شقيه الشعري والنثري كما سيأتي لاحقا

وصف لحياة العرب في هذه الفترة (الإسلامي والأموي)

1-**حياة الجهاد الإسلامي (الحياة الخارجية):** عرف بداية هذا العصر انطلاق الدعوة الإسلامية وحين حمل الرسول ﷺ من ربه الأمر بإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور بعد فترة طويلة عن الضلالة والكفر وعبادة الأوثان وغلبة قوانين الجور والطغيان لذلك عرفت حياة المسلمين انطلاق ظاهرة الفتوح لنشر الدين فكانت على ما يلي:

أ) **فتوح شبه الجزيرة العربية:** حين دفعت قريش الرسول إلى مغادرة مكة واللجوء إلى المدينة المنورة كان يدرك انه سيعود قريبا لفتح مكة ويقينه في نشر الدين كان يحظه إلى إرساء قوام دعائم دولة الإسلام في مكان ما، بعد أن منعته الغطرسة اليهودية من إرسائها في مكة فاحتضنته المدينة وناصره الأنصار مواعدين على النصر أو الشهادة لتنطلق بعد عامين عملية الفتوح بنصر بدر ثم بقية الغزوات وما هي إلا ثماني سنوات من خروجه فارا مهددا مع صاحبه تلاحقه جحافل اللصوص وقناصي جوائز الظلم حتى عاد في قوة وكبرياء وقد دانت له رقاب العرب وذلت له ملوكهم وقد فتح مكة وأعزها بالإسلام.

ب) **فتوح الشام والعراق:** بعد أن طهر مكة وما جاورها من بقايا الكفر والظلال انطلقت وفود الدعوة إلى نشر الإسلام في قبائل العرب حتى بلغت جيوش الفتح بلاد الشام فدحر خالد بن الوليد جيوش الروم في موقعة اليرموك ودانت بلاد فارس لسيف سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية بالعراق وامتد نور الفتح حتى تخلت مناطق شاسعة على تخوم شبه الجزيرة شرقا وغربا عن عبادة الأوثان ودانت لسلطة الدين الإسلامي.

ج) **فتوح مصر والمغرب والاندلس:** بعد فتوخ الخلفاء الراشدون لبلاد الفرس والروم توجهت الجهود في عهد بني أمية إلى الوجهة الغربية لشبه الجزيرة فتعددت وفود الجيوش الإسلامية في فتح الإسكندرية فدُكت حصون بابليون ثم امتد الفتح إلى بقية اليابسة إلى أن بلغت أقدام فرسان الفتح شواطئ المحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا ويقول فارسها عقبة بن نافع: "والله لو علمت أن بعد الماء هذا يابسة لخضت البحر فتحا لها" ثم كانت فتوح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد.

2. الحياة السياسية الداخلية:

أ)دين جديد وفكر مختلف:

حمل الإسلام للعرب مشروعا حضاريا متكاملا ينظم لهم حياتهم ويبني لهم تفكيرهم بنمط مختلف وصورة مغايرة على ما كانوا يحيونه من قبل فنظم لهم مختلف مظاهر حياتهم العقلية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فرشّد لهم أسلوب تفكيرهم و دفعهم إلى تغليب العقل والمنطق فأحيى فيهم ملكة التأمل والمحاورة فانتشرت بينهم روح المناظرة والنقاش وخاصة في متنها الديني وشقها التعاملي خاصة. وظهر ذلك في مشكلة الخلافة وأزمة الحكم التي حدثت في عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فكثر الجدل وتحرى المجادلون زوايا الرؤى الصغيرة وانساقوا إلى تقديم الأمثلة والشواهد في المسائل بعد أن كان قبل ذلك يكتفي المتخاصمان بحكم الحكم دون تعليل أو تمثيل فهكذا حكمت حياتهم المجادلات الفقهية في أمور الدين انطلاقا من الجدل اللساني إلى القتال بالسيف كما حدث بين الإمام علي ومعارضوه جميعهم (الخوارج وبنو أمية).

هكذا عمل الدين على تلميع الذهنية العربية وشحنها ومساعدتها بالآليات التي يقوم عليها الفكر الإنساني وعلى ذلك كانت صورة الحياة الثقافية في عصر الهدوء السياسي (عصر بني أمية) بداية من حكم يزيد بن معاوية إلى سقوط الحكم الأموي .

هذه الفترة التي عرفت تنوعا في صورة الخطاب وتطورا في وسائله وآلياته، وأهم تلك الوسائل والآليات التعبيرية النثرية التي عرفها هذا الطور تمثلت في:

أولا/ الخطابة: كما سبق من حديث عن خطابة الجاهليين فقد وصفت بخطابة الفرقة والظلم والعدوان وفي أغلب موضوعاتها كانت موجهة إلى إثارة الشحناء والدعوة إلى الحروب وإلهاب النفوس ضد الآخرين .

أما خطابة العهد الإسلامي فقد اتخذت في مظهرها في أول عهد الخلافة هدفا ساميا فباتت آلية للنصح والتوجيه والترغيب في الدين الجديد فقد كانت في عهد الرسول الوسيلة الأوحد لمخاطبة المسلمين بعد أن بدأ عددهم في الازدياد، يشرح الدين ويبرز أصوله من أوامر ونواهي وينصح الخلق بمبادئ المعاملة والتكامل بين أفراد المجتمع ثم اتسعت في عهد الخلفاء إلى أن شملت ظواهر السنن والعبادات والعاملات التي اتسعت في ذلك العهد.

أما في عهد الفتنة وما تلاها من عصر بني أمية فقد اتخذت لها منهجا متنوعا وصورا متعددة في التمظهر كما سيتضح أكثر في بقية المحاضرات فكانت وسيلة نضال سياسي ومناظرة عقائدية ونهلت من القران والسنة وأقوال الصلحاء والدعاة والحكماء ما جعلها احد مظاهر التطور الحضاري والثقافي الحاصل في عهد الإسلام.

أما عن خصائصها فقد اتسمت بصفات الخطابة النبوية حيث غلب عليها الإيجاز والدقة والتركيز والتزام اللغة الفصيحة المباشرة التي تمتص مفرداتها من القران الكريم والحديث الشريف والتعبير عن مقاصد الشريعة وموضوعاتها العقائدية والأخلاقية ولعلها بدأت تطول بعد وفاة الرسول (ص) وأخذت صورتها العامة من خطبة حجة الوداع .

ووفقا لوصف الدارسون تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي:

1-**الخطبة البتراء:** وهي الخطبة التي لا تحتوي على مقدمة تحميد وتمجيد أو تهليل.

2-**الخطبة الصمعاء أو الشوهاء:** وهي التي تخلو من أمثلة وشواهد من القران والحديث والشعر والحكمة

3-**الخطبة العصماء:** و هي الخطبة الكاملة التي جمعت عناصر الخطابة كلها .

ثانيا/ الكتابة:

لم تكن الكتابة من وسائل التواصل المتعامل بها في العصر الجاهلي إلا لما كان من عظائم الأمور من العهود التوافقية والوثائق المقدسة أو ما يشاع من كتابة القصائد الطوال مما لم يؤكده كثير من الدارسين بعد ذلك .

ومع بداية الاستقرار الشامل للحياة السياسية لدولة الرسول (ص) أخذ في كتابة رسائل نشر الإسلام إلى كبريات الدول حينها كرسالته الداعية لاعتناق الإسلام إلى المقوقس وإلى عظيم الروم وإلى كسرى فارس.

وقد سار مساره الخلفاء من بعده في التواصل السياسي والتعامل الحضاري عن طريق الرسائل خاصة بعد أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب الدواوين وخصص للرسائل ديوانا خاصا بها وكلف عمالا يقومون على تدبيج رسائله إلى قادة جند الفتوح وإلى ولاته على الأمصار البعيدة أو كوضع المعاهدات كمعاهدة البيت المقدس المسماة بالوثيقة العمرية وكانت الكتابة في هذه الفترة إنتاجا «مطبوعا لا تصنّع فيه ولا تكلف معه ... نحن ننفي عنه العفوية المطلقة ولكننا كذلك ننفي عنه التصنع المتكلف ... كان أدبا تصطنعه المواهب النفسية في حدود قدراتها لا تتكلف أن تشحذ هذه القدرات ولا أن تضيف إليها وكانت تتعاون عليه طاقات الآداء الداخلية ولكنها كانت لا تتلوى أو تتعقد في سبيل إنتاجه ... ولذلك نقرأ هذا الأدب فنحس الانسياب والتدفق ونشهد كأنما تجري مع دفقة الماء في مجرى سهل ...لقد كان الأدب العربي في هذا الدور أدب أداء وكان النثر اشد حرصا على التعبير أعني الإفهام ... و لم يكن في هذا الدور إذن أدب تطغى

عليه فنية مصطنعة وإنما كان هذا التفنن الطبيعي الهادئ الذي لا نحس معه جهد الأديب ولا اعتصار قواه»[1].

كما اتسمت الكتابة في عهد الخلافة الراشدة بالإيجاز والدقة ثم أخذت تطول بسبب تشعب الحياة الاجتماعية وتنوع مصادر الثقافة واختلاف أجناسها وتعدد أساليب التواصل والخطاب «وكان الخلفاء والقواد والولاة هم أعلام هذا النثر الجديد ومن الواضح أن الموضوعات التي كان يدور حولها أدب هؤلاء الخلفاء كانت من صميم الحياة الاجتماعية والسياسية للجماعة الإسلامية الجديدة وكان هذا الأدب تعبيرا عنها وتصويرا لمثلها وحثا على غايتها ودفعا للناس في طريقها المستقيم»[2].

ثم توجهت الرسائل إلى الطول لاعتماد الخلفاء والولاة في كتبهم إلى مواليهم التفصيل والشرح والتوضيح وامتزاجهم بأعاجم يحملون قسطا وافرا من التحضير والثقافة وتنظيم حكومتهم وتعدد دواوينهم وصناعتهم وامتداد تفكيرهم مستعينين بما لهؤلاء من أساليب وخبرة في الكتابة يمكن للعربي أن يستفيد منها وتستفيد منها لغتهم وأدبهم وهذا ما تؤكده أخبار صناعة الكتابة التي بدأها أبو علاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ثم أرسى أصولها وأركانها تلميذه الذي أصبح من بعده زعيم الكتابة زمن العهد الأموي عبد الحميد الكاتب.

(1).حنا الفاخوري، جامع الأدب العربي القديم، ص ص322 . 323.

(2).المرجع نفسه، ص324.